

أخي والبحر

سحر العياري

سوى تخمين في ذهن راوي السيناريو.
إنها الآن تنام فوق حشية بالية. بل إنها في الحشية
تغيب أليماً غير معدودات.

* * *

أخي لا يعرف أن أمي بدأت تنساه...
إنه في الثالثة من عمره يحفر بقدميه آثاره المرحية
في الرمل الطري في كل الاتجاهات التي تتبعها ريح رغبته.
غير ان عينيه تبقيان في لون البحر لا تتطلعان الا صوب
البحر ولا تغتسلان الا بمائه.

أهناً ساعات حياته ساعات يكون للمد او
للجزر في هذا الشاطي المعزول نسق وتشويق لا يرتاح
إليهما إلا هو، الطفل، العاري الا من الضحك. فقد يهجم
البحر ويغزو ميلين من عرض الساحل، وقد ينسحب الى
حدّ أن يعري حشائشه وأسماكه وحلزوناته. وفي كلّ كرّ
وفرّ تمتد رؤوس أمواجه المذبذبة مشرّبة نحو جسد الطفل
العاري الا من شهوة الماء... تارة تريده وترغبه في رغبة
شبهها، وتارة تدبر عنه مودعة باغراء، مرتدة الى موقع
ترصدها فرصة جديدة يثور فيها أخي.
وقد تبرق السماء وترعد وتمطر...
وقد يلفح هيب الشمس كلّ ذرى الهضاب والرمل...

أمي تعرف أن أخي يحب البحر.
وأخي يعرف أن البحر رفيق لهوه، ومُغِدق متعته
وزهوه.

والبحر لا يعرف أن أمي أنست للعبه مع أخي، كما
استسلمت لرتابة الزمن في كوخ خشبي مهمل على
شاطيء رملي، قد حبست سلسلة دائرية من الهضاب
الجرداء عزلته في الساحل الغربي الذي دمرته الحرب منذ
عشرين سنة...

* * *

أمي كانت تخاف الاصبح التي لا تحمل وعودا،
ولا تتولد منها بشائر أو نذائر.
قلقت الى حدّ القرف، فما عادت تُحسُّ برابطة
تشدها الى الطبيعة أو الى البشر، وفقدت كل ادراك بان لها
دوراً — أحبّت ذلك أم كرهت — في سيناريو اللاحث
المتكرر... نوم — أكل — ضجر — غثيان.
(أي غادرها منذ سنة واربعة شهور على متن
مركب صغير). ذاب الانتظار في غفوة ما زالت تطول...
إن هي إلا جسم يتململ في صمغ اللامبالاة.
حتى الخوف، خوفها من كل صبح جديد، لم يعد

وقد يكون لليل والنهار تناوب متفاوت الدوام...
لكن أخي يبقى الى البحر راصدا...

ويبقى البحر يتلاعب بضحك أخي، هذا الضحك
الصادي الذي لا يُغَطِّي وحدته، ولا يستر وحشته، إن هو
الا التحدي للهضاب التي بدأت تضيق الخناق حول
الشاطيء، قد عبّر عنه عفو خاطر الطفل العاري الا من
حب البحر.

أخي يحب البحر.

أمي نسيت أخي...

نسيت كذلك كرهها للبحر الذي ابتلع أبي منذ

سنة وأربعة شهور.

* * *

كان هادئا عندما خرج من الكوخ.

نظر البحر. لم يفزعه البحر. ولم يبهره برق

العاصفة المتأهبة لمصارعة البحر.

هذا الامتداد من الماء المتقلب في السخرية

والعنف او في التودد والكرم... لهو اللعنة. لا سبيل

لصرف النظر عنها، ولا قدرة على ترويضها نهائيا على

الدوام.

هذا الامتداد، امتداد لعدم استقرار نفس أبي،

امتداد منه يجوع وإليه...

ركب الزورق. وابتعد عن الشاطيء كالمسئل

الى ساحة الوغى. العاصفة والبحر وأبي، لا اخوة ولا

اعداء، قد يكونون الى الان في مصارعة ثلاثية في نقطة ما

من المحيط...

* * *

أخي ينظر البحر كذلك.

والبحر ينظره...

صديقان، حبيبان، اخذتهما رهبة. لعلهما

يشعران بأن لقاء اليوم وليد رغبة اشد من ذي قبل. بل

لعلهما يدركان ان تشدد هذه الرغبة المفاجيء قد لا

يقابلانه بالعناق الكفيل بارضائه، او اللعب الذي يكرم

مقامه.

لحظة طالت وطل انتظار الشاطيء لمد

البحر...

حتى الهضاب المتوحشة توقعت امرا فهبت...

جرى اخي الى البحر يستقدمه. تمنع البحر. ربما

كان مشفقا على نفسه من لوعة الحب. تقدم اخي، الى

الامواج التي تصاغرت عند قدميه. ربما كانت تتوسل اليه

كي يتعد.

لكن الحاح اخي شديد. وحبه للبحر حتمي اذ

كان البحر حيا وكانت الهضاب ميثمة، فأثر الحياة...

وعندما جرى البحر بدوره، تناثر ضحك اخي

عاليا وبعيدا. صديقان، حبيبان، عاريان الا من الوجد.

الطفل يقفز والبحر ينساب تحت قدميه، في سباق، كان لا

بد ان يكسبه الماء...

أجل!

يلبغ البحر حدود الكوخ فيفطن الى ان

الضحك انطفاً منذ مدة. ألهاه لهائه وفرحه بالانتصار.

أعماه التحدي.

رؤوس الامواج تلتفت يمينا وشمالا.

تزجر رؤوس الامواج. تنادي.

أخي لا يجيب.

يسحب البحر رؤوسه الى وراء، الى وراء، الى

وراء.

لا أثر لأخي بين الحشائش وأسماك المداس

والصدف.

دوى في حشا البحر هدير الفاجعة. وبكى

البحر. بكى البحر. ولا يزال البحر يبكي كلما يتذكر

أخي.

البحر لا يبكي الا عندما يتذكر اخي.

* * *

أمي ماتت لعل الهضاب تكفنها.

سحر العيادي